أضواء على أسلوب الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم

بقلم
د. عبد الرزاق حسين غالب (جامعة الأمير سونكلا – تايلاند)،
والدكتور الحاج محمد سمن (جامعة ملايا – ماليزيا)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الصادق الأمين نبينا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد..

فإن القرآن الكريم دستور المسلم في حياته العامة والخاصة، وهذا الدستور يضم بين دفتيه ما يريده الله تعالى للمسلم من اعتقاد وعمل، فالمسلم الحريص على نيل رضا الله في الدنيا والفوز بجنانه في الآخرة، لابد أن يكون حريصاً على فهم كتاب الله ليكون أقدر على فهم ما يريده الله تعالى من عباده وفهم كتاب الله لا يتأتى إلا بتعلم اللغة العربية لأن القرآن الكريم يمثل الذروة في بلاغة الأساليب العربية، ولعل من أهم المباحث التي ظفرت بعناية الباحثين في القرآن الكريم هي الأساليب الإعجاز القرآني، حيث احتلت منزلة واضحة في الدراسات القرآنية منذ أول ظهورها، وفي الوقت نفسه فقد عني علماء البلاغة واللغة بالحاجة إلى تفهم هذه الأساليب، لأن ورودها قد كثر في كتاب الله عز وجل وأن لكثير من تلك الأساليب أغراضا بلاغية تفهم من حيث الصيغ أو القرائن، وفي الصفحات التالية سوف نتناول بشكل منفصل.

أ- أسلوب القرآن

أما المراد من الأسلوب هنا، فإنما هو مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله، ليس من ذلك شيء إلا وهو معجز، هو الذي قطع العرب دون المعارض، وهو الذي ضربهم بالحجة من أنفسهم، ثم هو الذي مثل لهم اليأس قائماً لا يتصل به طمع، وصور لهم العجز غالبا لاتنال منه القدرة.[١] رأى بلغاء العرب، أن هذا التركيب هو روح الفطرة اللغوية فيهم، وأنه لا سبيل إلى صرفه عن نفس أحد العرب أو اعتراض مساغه، إذ هو وجه الكمال اللغويّ الذي عرف أرواحهم واطلع على قلوبهم، بل هو السرّ الذي يفشي بينهم نفسه وإن كتموه. لاجرم كان من الرأي القائل والمذهب الباطل قول أولئك الذين زعموا أنّ الإعجاز كان بالصّرفة، على ما عرفت من معناها، وما دعاهم إلى القول بها إلا فجعهم كيف لم يأت للعرب أن يعارضوا السورة القصيرة والآيات القليلة مع هذا التحدّي ومع هذا التقريع، وهم اللدّ الخصمون، والكلام سيد عملهم ولهم فيهم المواقف والمقامات؟ أنّ أولئك لوكان لهم إحساس العرب أو لم يأخذوا الأمر على ظاهره وردّوه إلى أسبابه في الفطرة، لانصفوا للبلغاء العرب. وقد استيقن بلغاء العرب كل ذلك فاستيأسوا من حق المعارضة، فنحن نعلم ما كان من شأن كفار مكة وقت نزول القرآن، كيف عابوا طريقة نزوله، فمن قائل"لوكان هذا من عند الله مخالفا لما يكون ما

---

[١] الرافعي، مصطفى صادق، *اعجاز القرآن والبلاغة النبوية*، المكتبة تجارية الكبرى، بمصر، ط٧، ١٩٦١، ص-٢١٢

عند الناس لم ينزل هكذا منجما، سورة بعد سورة وآيات بعد آيات، على حسب النوازل وكفاء الحوادث. وعلى سنن ما نرى عليه أهل الخطابة والشعر" [٢] وكيف كانوا يتهمونه بأنه ساحر، وبأن القرآن" أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا"[٣]، وفي هذا الصدد كانت لعودة أبي عودة نظرة رائعة في التدرج القرآني الموصل في نهاية المطاف إلى التحدي الوارد في هذه الآيات،كقوله تعالى: **"قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا"**[٤] وقوله تعالى: **"أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين."**[٥] وقوله تعالى: **"وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين."**[٦]

"سلك القرآن الكريم سبيلا منطقيا في تحدي المشركين فقد تحداهم أولا أن يأتوا بمثل القرآن إن كانوا في ريب منه وفي المرحلة الثانية تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات لأنهم أشاعوا في أوساط الناس أن هذا الكتاب مفترى، وفي المرحلة الثالثة والأخيرة ذكرهم القرآن الكريم وبين لهم زيف موقفهم وشدة

---

[٢] الزمخشري، الكشاف، جـ١–ص–٨.

[٣] ا لفرقان: ٥٠.

٤ سورة الإسراء :٩٦،٩٧،٨٨

٥سورة هود: ٣٥

سورة البقرة: ٢٣، ٩٨

جهلهم فتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله ولم يكتف بذلك بل بين أنهم لم يفعلوا ذلك ولن يفعلوه. ولو تأملنا في تسلسل لوجدنا أنه يوافق النفس الإنسانية، وينسجم مع الواقع الاجتماعي، فلو أراد أحد منا أن يتحدى صديقا له في أمر ما، فإنه يتحدى أولاً بأقصى ما يستطيع هو أن يفعله، فإن عجز تحداه بأقل من ذلك فإن عجز تحداه بالأقل، فإن عجز ثبت له أن صديقه لا يساوي شيئا في هذا المجال. وهكذا كان الأمر مع مشركي العرب عند نزول القرآن، فقد تدرج بهم من الدائرة الكبرى إلى الأصغر فالصغرى فلم يفعلوا ثم أراد الله عز وجل أن يصورهم في عنادهم كالجثة الهامدة التي لاحياة فيها على الرغم من كفرهم وادعائهم فقال لهم "فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا" فأنظر إلى هذا "التيئيس" والاستخفاف بهم. ومن أشد الأمور وأقساها أن يواجه المرؤ بما يشعره بنقصه وعجزه وفشله وسقوطه طوال عمره، وانظر أيضا إلى الناحية النفسية القاسية التي تحيط بهولاء عندما يواجهون بهذا الحكم وبخاصة عندما يتناقل الناس هذا القول ويذهبون به شرقا وغربا في رحلاتهم وأسفارهم إنه العجز التام والإحباط المؤلم. وما زال أهل الدنيا يحاولون بكل إصرار أن يفعلوا شيئا يسيء إلى هذا القرآن، ولكنهم لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلاً. [٧]لهذا المقام كانت الآية في نسقها القوى المحكم الكثير النكات الواضح السمات: فـ"إن" الشرطية استخدمت هنا والفعل محقق الوقوع، والبصريون يمنعون ذلك، وهو التحقيق، كالمعنى مع "إذا"

---

[٧] عودة أبو عودة، *شواهد في الإعجاز القرآني دراسة لغوية دلالية*.، دار الأمر، بيروت–لبنان، ط١، ١٩٩٨، ص– ٦٧–٦٨

لأنه من باب خطاب التهيج الذي هو أنسب شيئ بالموقف[8]كما يفهم من الآية أن الكلمة "**ريب**" في الآية نكرة لإفادة قلة وأكثرها منسجمة مع حالات المشركين حينئذ، فبعضهم كان قليل الريب قريبا من الإيمان، وبعضهم كثير الشك قوي العناد، مفرطا في اللدد بعيدا عن الإيمان."وعلى عبدنا" يفيد التسلية للنبي"صلى الله عليه وسلم" "فأتوا بسورة من مثله" إنه غاية التبكيت، والتعجيز والسخرية لأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بمثله. وسر البلاغة التعبيرية بالأمر في مقام التعجيز إبراز قوة التحدي والتستجيل عليهم ليتعظوا ويقلعوا عما هم فيه من عناد ومكابرة.

ولهذا انقطعوا عن المعارضة، مع تحديهم إليها على طول المدة وانفساح الأمر وعلى كثرة التقريع، والتأنيب، وعلى تصغير شأنهم وتحقيرهم، وذلك بالنزول عن التحدي بمثل القرآن كله إلى عشرسور مثله، إلى عشر مفتريات لا حقيقة فيها، إلى سورة واحدة من مثله، ما استطاعوها، لأنّ إحساسهم منصرف إلى أصل الكمال اللغوي في القرآن، فلا يرون معارضة تكون إلا على هذا الأصل، وهو شيء لا تناله القدرة، ولا تيسره القوة. فلو ذهبوا إلى معارضة السورة القصيرة على قلة كلماتها، وعلى أنها نفس واحدة وجملة متميزة، لضاق بهم الأمر [9]. فلا يؤخذ من الكلام الذي سبق في عجز العرب عن معارضة السورة القصيرة من القرآن، أن غير العرب المحدثين والمولدين

---

[8] الزركشي، *البرهان في علوم القرآن*، جـ٤، ص-٦.

[9] الرافعي، مصطفى صادق، *اعجاز القرآن والبلاغة النبوية*، ص-٢١٨

وسائر من يكونون عربا في اللسان دون الفطرة، يستطيعون ما لم يستطع أؤلئك.

هذا هو سبيل آثار النوابغ الملهمين الذين انفرد كل واحد منهم بحيزه من الفن، فإن المعجز من هذه الآثار إذا بلغ أن يتجوّز في العبارة عنه بهذا الوصف لا يكون إعجازه إلا على قدر ما يحتوي من كمال الفطرة الفنية، فتتمثل أنت منه ما كان في النفس إحساساً صرفاً، وأملاً محضاً، ثم يتصفحه من يريد معارضته فيراه بعينه ماثلاً مصوراً، حتى لا يشك في إمكانه ومطاوعته، ويبتغيه حين يبتغيه فإذا هو قد عاد في نفسه إحساساً وأملا لا سبيل عليهما للقدرة الفنية. [١٠]

هذا هو معنى الإعجاز، ولا يزال يتفق منه في أعمال الناس على حسب ما يكون من اختلاف درجاتهم ومبلغ طاقتهم وما من ذي فنّ نابغ إلا وأنت واجد حسن عمله دون أمله هو في هذا الحسن، ودون إحساسه بهذا الأمل، حتى إنك لتعجب بما ظهر من قدرته الفنية في عمل الذي تراه أحسن شيء، على حين أنه لا يعجب إلا بالأصل الكامل الذي توهمه في نفسه، ووجد بيانه في خاطره، والذي لم يستطع أن يخرجه كاملاً، لأنّ من طبيعة الإحساس أن يظهر فيه كمال النفس مادام في النفس، فإذا انقلب في الحواس عملاً ظهر فيه نقص الحواس. ولما كان مرجع تقدير الكلام في بلاغته وفصاحته إلى الإحساس وحده وخاصة في أولئك العرب الذين من أين

---

[١٠] الرافعي، مصطفى صادق، *اعجاز القرآن والبلاغة النبوية*، ص- ٢٢٢

تأملتهم ورأيتهم كأنما خلقوا خلقاً لغوياً، أو كأنّ القرآن الكريم قد جمع في أسلوبه أرقى ما تحس به الفطرة اللغوية من أوضاع البيان ومذاهب النفس إليه فقد أحسوا بعجزهم عما امتنع مما قبله ولهذا انقطعوا عن المعارضة.

إضافة إلى ذلك لقد خفى المعنى التكرار على بعض لانفاد لهم في أسرار العربية ومقاصد الخطاب أول من نبّه على التكرار كان الجاحظ إذ قال: "ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب، أخرج الكلام مخرج الإشارة، والحذف، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً وزاد في الكلام، كأنما ذلك في إفهامهم وتوسّع في تصوير المعاني لهم وتلوينها بالألفاظ، إيجازاً في موضع وإطناباً في موضع إذا كانوا قوما لا سليقة لهم كالعرب وليسوا في حكمهم من البيان، فلا يمضي كلامهم لسننه بلا اعتراض من تنافر التركيب وثقل الحروف وجفاء الطبيعة اللغوية، فلهذا ونحوه كان لابد في خطابهم من التكرار والبسط والشرح، بخلاف العرب، فإنّ الخطاب يقع لهم على سنن كلامهم من الحذف، والقصة إلى الحجة، والاكتفاء باللّمحة وبالإشارة الموحية، وبالكلمات المتوسمة، وما يجري هذا المجري".[١١]

ولما حاول مسيلمة الكذاب أن يعارضه جعل يطبع على قالبه، فجاء بشيء لا يشبهه ولا يشبه كلام نفسه، وجنح إلى أقرب ما في الطباع الإنسانية، وأقوى ما في أوهام العرب من طرق السجع، فأخطأ الفصاحة من كل جهاتها.

---

[١١] الجاحظ، *الحيوان*، جـ١، ص-٤٦

مادامت قوة الخلق ليست في قدرة المخلوق، فليس في قدرة بشر معارضة في هذا الأسلوب.إضافة إلى ذلك أنّ في أسلوب القرآن معان كثيرة وأغراض وفرة، مما لو كان في كلام الناس لظهر عليه صبغ النفس الإنسانية لا محالة، بأوضح معانيه وأظهر ألوانه.

إن أسلوب القرآن من اللين والمطاوعة على التقليب، والمرونة في التأويل، بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقالبة التي تخرج بها طبائع العصور المختلفة، فهو يفسّر في كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه، واختلاف وتمحيص، وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلا الفطرة، وفهمه كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفة وأهل العلوم، وفهمه زعماؤ الفرق المختلفة على ضروب من التأويل، وأثبتت العلوم الحديثة كثيراً من حقائقه التي كانت مغيبة، وأكبر السبب في ذلك أنّ هذا القرآن الكريم ليس عن طبع إنساني محدود بأحوال نفسية، فهو يدور للمعاني، ويريغ الأساليب، ويخاطب الروح بمنطقها من ألوان الكلام لا من حروفه[١٢].

ب- أسلوب بلغاء العرب وأسلوب القرآن

إن تركيب الكلام يتبع تركيب المزاج الإنساني، وإن جوهر الاختلاف بين الأساليب الكتابية، في الطريقة التي هي موضوع التباين، لا في الصنعة كالمحسّنات اللفظية ونحوها، إنما هو صورة الفرق الطبيعي الذي به اختلفت الأمزجة النفسية بعضها عن بعض على حسب ما يكون فيها أصلاً أو تعديلاً

---

١٢ المصدر السابق، ص- ٢٣٣

كالعصبى الدموي، وغير ذلك مما هو مقرر في الفروع الطبية، حتى كأن الأسلوب في إنشاء كل بليغ متمكن ليس إلا مزاجاً طيباً للكلام، وما الكلام إلا صورة فكرية من صاحبه. وقد أمعنا في هذا الاستنتاج، وقلبنا عليه كلّ ما نقرؤه من أساليب العربية، وهي معدودة، حتى سار لنا أن نستوضح، أكثر أوصاف الكاتب من أسلوب كتابته، برد ذلك إلى الأوصاف النفسية التي تكون من تأثير الأمزجة، والتي قلّما تختلف في الناس، وبها أشبه بعضهم بعضاً، وبها كان التاريخ يعيد نفسه.وأنت تتبين هذه الحقيقة إذا أخذت أسلوبا كأسلوب الجاحظ، وهو من أدق الأساليب العصبية، فإنه لا يصنع شيئاً، وإذا نتج الكلام على هذه الطريقة فلا يجيء إلا مضطرباً متعثراً مطبقاً بأبواب التعسّف التكلف، وكأنه نتاج بين نوعين متباينين من الخلق[١٣]، ولكن هذا الأديب عينه إذا أخذ في طريقة السجع أو الترسّل المتداخل، الذي ليس حذراً ولا مساوقة، كترسل الجاحظ وأضرابه فقد لا يتعلق بجيّده في ذلك شيء.

ولا يزال بيننا أدباء وعلماء البلاغة ووجوه الكلام، يتعجبون كيف لا يتهيأ لأحدهم أسلوب كأسلوب ابن المقفع أو عبد الحميد الكاتب أو الجاحظ، وكيف لا تستقلّ له طريقته من ذلك على كثرة ما حاولوا من تقليده والأخذ في ناحيته، ولا يدرون أنهم يحملون سر إخفاقهم، وأنّ أحدهم إذا

[١٣] الرافعي، مصطفى صادق، ص-٢٣٠

استطاع تعديل مزاجه على وجه من الوجوه الطيبة ليكون بين مزاجين فقد يستطيع تعديل أسلوبه على وجه يكون وسطاً بين أسلوبين.

إن عبد الحميد الكاتب، رأس تاريخ الكتابة العربية واضع طريقتها، فقد أخذ بنفسه بحفظ كلام أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه وأرادها على طريقته، ثم جاءت كتابته فناً آخر لم يستحكم اتفاق الأسلوب بينها وبين ما أثر من كلام علي رضي الله عنه[١٤].

ذلك بعد ما تهيأ لنا من القول في الجهات التي اختص بها أسلوب القرآن فكانت أسباباً لانقطاع العرب دونه وانخذالهم عنه، وتلك أسباب لا يمكن أن يكون شيء منها في كلام بلغاء الناس من أهل هذه اللغة، لأنها خارجة عن قوى العقول وجماع الطبائع، ولا أثر لها بعد في نفس كل بليغ يعرف ما هي البلاغة، إلا الاستشعار بالعجز عنها والوقوف من دونها.[١٥]

من ذلك يَخلص لنا أنّ القرآن الكريم إنما ينفرد بأسلوبه، لأنه ليس وضعاً إنسانياً، ولوكان من وضع إنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوباً من أساليب العرب أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد، ولا من الاختلاف فيه عند ذلك بد في طريقته[١٦] ونسقه ومعانيه" ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه

---

[١٤] كمال الدين عبد الغني، *دراسات بلاغية في إعجاز الأسلوب القرآن*، د.ط، د.ت، ص: ١٣٧.

[١٥] الرافعي، مصطفى صادق، *إعجاز القرآن والبلاغة النبوية*، ص: ٢٣٩.

[١٦] المصدر السابق، ص: ٢٣٢.

اختلافاً كثيراً" ولقد أحسّ العرب بهذا المعنى واستيقنه بلغاؤهم ولولاه ما أفحموا ولا انقطعوا من دونه، لأنهم رأوا جنساً من الكلام غير ما تؤديه طباعهم، وكيف لهم في معارضته بطبيعة غير مخلوقة.

إنّ بلغاء العرب تفنّنوا في أساليبهم في تصاريف الألفاظ، وتمكين الأسلوب، وإرهاف الحواشى، واجتناب ما عسى أن تبعث عليه رخاوة الطبع وتسمّح النفس، من حشو أو ضعف أو قلق، ثم التوكيد للمعنى بالمرادفات المتباينة.

أما أسلوب القرآن ليس كذلك، لا تحسّ بشيء من كل ما تقدم أو من شبه ما تقدم في الأسلوب القرآني، ولا ترى فيه من الغرابة التي يكسوها البلغاء كلامهم، إلا انّ غرابته في كونه منسجماً لا غرابة فيه، وليس عندنا أغرب من هذه السهولة التي يسيل بها القرآن، وهي في كثير من الكلام كثير من أغراضه تقتضي الابتدال، وفي القرآن كله على تنوّع أغراضه لا تقتضي إلا الإعجاز.وانظر هل ترى هذه السهولة الغريبة في نفسها مما يمكن أن يحسّ فيها روح إنساني كسائر الأساليب، أم هي سهولة الأوضاع الإلهية التي يعرفها كل الناس ويعجز عنها الناس كلهم، تأمل هل تصيب في القرآن كله إلا أثراً من التمكن يصف لك منزلة المخلوق من أمر الخالق، وإلا روحاً أكبر من أن يكون نفساً إنسانية أو أثراً من آثار هذه النفس.[١٧]

---

[١٧] الرافعي، مصطفى صادق، ص٢٣٥

هذا على أنّ فيه المعاني كثيرة والأغراض وافرة، مما لو كان في كلام الناس لظهر عليه صبغ النفس الإنسانية لا محالة، بأوضح معانيه وأظهر ألوانه، وبصفات كثيرة من أحوال النفس، وحسبك أن تأخذ قطعة منه في الموعظة والترغيب أو الزجر والتأدب، أو نحو ذلك مما يستفيض فيه الكلام الإنساني، فقرنها إلى قطع مثلها من كلام أبلغ الناس بيناً، وأفصحهم عربيةً لترى فرق ما بين أثر المعنى الواحد في كلتا القطعتين، ولتقع على مقدار ما بين الطبقة الإلهية والطبقة الإنسانية في السعة والتمكن، فإنّ هذا أمر لا تصف العبارة منه، وإذا وصفت لا تبلغ من صفته، ثم لا دليل عليه لمن يريد أن يستدلّ إلا الحسن.

إن هذا القرآن الكريم ليس عن طبع الإنساني محدود بأحوال نفسية لا يجاوزها، فهو يداور المعاني، ويريغ الأساليب، ويخاطب الروح بمنطقها من ألوان الكلام لا من حروفه، وهو يتألف الناس بهذه الخصوصية فيه، حتى ينتهي بهم مما يفهمون إلى ما يجب إن يفهموا، وحتى يقف بهم على نص اليقين ومقطع الحق، وتراه في أوضاعه من أجل ذلك، يستجمع درجات الفهم كأنّ فيه غاية لكل عقل صحيح، ولكنه في نفسه وأسرار تركيبه آخر ما يسموا إليه فهم الطبيعة نفسها، بحيث لو أنه علا عن ذلك لخفى على الناس، لأن علوه يفوت ذرعهم، ونزوله يوجدهم السبيل إلى معارضته ونقضه، وكلا هذين يجعل أمره عليهم غمةً فلا يتجهون إلى صواب. كل الناس يعملون لفهمه، ولكل درجات مما عملوا.

نعم أن القرآن الكريم مبني على ألفاظ ألفها العرب وهي مطروقة معروفة لديهم وهم يستعملونها في محاوراتهم وفي حديثهم، وليس هناك من الغريب الذي يحتاج إلى تفسير أو إلى معجم إلا الشيء اليسير، فهو سهل التناول وهو قريب ميسور، وما فيه من الفقر والآيات الغرر بالقياس إلى الآيات التي تحمل معان مألوفة، وهم عرب فصحاء مقتدرون على التصرف في أودية الكلام عارفون بنظومه، قصيدة ورجز وسائر فنونه، ولكن أنّ بلاغة القرآن أمور لا يمكن أن تجتمع لأحد من البشر، ولا يجوز أن تأتي عليها قدرته، وإن كان أفصح الناس، وأعرفهم بطرق الكلام، وأساليب فنون البيان، نعم أنّ هذا البشر مشهود له بالفصاحة، وامتلاك زمام البيان، واقتداره على الضرب في أودية الكلام، ومعرفة بأجناس الكلام من قصيده ورجزه وسجعه، ومعرفته بأدوات البيان من بيان وتشبيه وتمثيل واستعارة وكناية، إلا أنه لا يستمر على نسق واحد أو نظم واحد طيلة حياته، فهو إن جاء بقصيدة موزونة قد اكتملت فيها صفات الحسن، إلا أنّ هناك الكثير من القصائد التي تفتقد مثل هذه الصفات، وهو إن جاء بقطعة من النثر قد حازت صفات الجمال والحسن، إلا أنه ينقطع في غيرها كثيراً ولن تستمر له صفات الحسن والجمال في كل أعماله، لأن هذه صفات البشر الضعف والخور والانقطاع، وتلك بلاغة القرآن التي حازت صفات الكمال والجمال لأنها صنع الخبير العليم.[١٨]

---

[١٨] باحادق، عمر محمد عمر، شرح رسالة بيان إعجاز القرآن، للإمام الخطابي، ط١،

إن القرآن الكريم قد جمع من أجناس الكلام أعلاها، وأخذ من كل منها بشعبة، فاجتمع وامتزج له بذلك نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعذوبة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه فضيلة خصّ بها القرآن الكريم يسرها الله بلطيف قدرته من أمره، ليكون آية بينة لنبيه، ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه.

جـ- المعارضة وأسلوب القرآن

لقد مارس أهل العربية فنوناً مند نشأت لغتهم حتى شبت وترعرعت، وأصبحت في عنفوان شبابها عملاقاً معطاء، واستظهروا شعرها ونثرها، وحكمها، وأمثالها، وطاوعهم البيان في أساليب ساحرة، حقيقتاً ومجازاً، إيجازاً وإطناباً، حديثاً ومقالاًً، وكلما ارتفعت اللّغة وتسامت، وقفت على أعتاب لغة القرآن في إعجازه اللغوي كسيرة ساحرة، تتحنى أمام أسلوبه إجلالاً وخشية، وما عهد تاريخ العربية حقةً من أحقاب التاريخ، ازدهرت فيها اللّغة إلا وتطامن أعلامها وأساتذتها أمام بيان القرآن اعترافاً بسموه، وإدراكاً لأسراره، وقد شهد التاريخ فرساناً للعربية خاضوا غمارها وأحرزوا قصب السبق فيها، فما استطاع أحد منهم أن يقوم بمعارضة القرآن، إلا باء بالخزي والهوان، بل إنّ التاريخ سجل هذا العجز على اللّغة، في أزهى عصورها، حتى نزل هذا القرآن، وقد بلغت العربية أشدها، وتوافرت لها عناصر الكمال والتهذيب في

١٩٩٥، ص١٣٣

المجامع العربية وأسواقها، ووقف القرآن من أصحاب هذه اللّغة موقف التحدي.[19]

هكذا كانت قريش في عنادها وبغيها، وتماديهم في باطلهم، وإصرارهم على ما هم فيه من كفر وعناد، وإلا فقد كانوا يعرفون ما يلزمهم من شروطها ومن العهدة فيها، كانوا يدركون هذه الصفات التي انبنت عليها فصاحته ويألفون ذلك ويدركونه، وأنه شيء ليس في مقدورهم، ولا تبلغه طاقاتهم وليس في وسعهم، هذا شيء يألفونه ويعرفونه، ويعلمون أنهم لا يبلغون شأوها ولا يصلون إلى مداها، وأنّ الإقدام على هذه مخاطرة، فلم يكونوا ليتجشموا مثل هذا الصعاب، وتلك المسالك الوعرة، فلما عرفوا العجز من أنفسهم، وأنهم لا يستطيعون معارضة القرآن، وأنّ هذا الأمر ليس في مقدورهم، تحولوا عن المعارضة باللسان إلى المعارضة بالسنان.[20]قام دليل الحال على عجزهم، وأنهم لم يستطيعوا معارضة القرآن الكريم، وإذ لو وجدوا في أنفسهم القدرة عليهم لما ترددوا فيه، والقرآن يتحداهم ليل نهار بالإتيان بسورة من مثله، وهذا دليل قاطع على عجزهم وانقطاعهم.[21]

تتابعت القرون لدى أهل العربية، وظل الإعجاز القرآني اللّغوي راسخاً كالطود الشامخ، فإنّ التاريخ يشهد بأنه قد توافرت الدواعي الملحة لدى

---

[19] مناع القطان، *مباحث في علوم القرآن*، ص- ٢٥٧

[20] باحادق، عمر محمد عمر، *شرح رسالة بيان إعجاز القرآن* للإمام الخطابي، ص١٢٤

[21] المصدر السابق، الصفحة نفسها.

القوم لمعارضة القرآن، حيث وقفوا من الرسالة وصاحبها موقف الجحود والنكران، واستثار القرآن حميتهم، وسفّه أحلامهم، وتحداهم تحدياً سافراً مع ما كانوا عليه من أنفة وعزة، سلكوا مع الرسول مسالك شتى، ساوموه بالمال والملك ليكف عن دعوته، وقاطعوه ومن معه حتى يموتوا جوعاً، واتهموه بالسحر والجنون، وتآمروا على حبسه، أو قتله أو إخراجه، وقد دلّهم على الطريق الوحيد لإسكاته وهو أن يجيئوه بكلام مثل الذي جاءهم به وما استطاعوه.

إن القرآن الذي عجز العرب عن معارضته لم يخرج عن سنن كلامهم، ألفاظاً وحروفاً، تركيباً وأسلوباً، ولكنه في اتساق حروفه، وطلاوة عبارته، وحلاوة أسلوبه وجرس آياته، ومراعاة مقتضيات الحال في ألوان البيان، في الجمل الاسمية والفعلية، وفي التعريف والتنكير، وفي الحقيقة والمجاز، وفي الإطناب والإيجاز، ولكن القرآن في هذا ونظائره بلغ الذروة التي تعجز أمامها القدرة اللّغوية لدى البشر.

ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع، والمعاني اللّطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول، وعلى هذا القدر، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة، يقع فيها اختلال واختلاف.

إنّ أسلوب القرآن وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التي يتصرف فيها، من ذكر قصص ومواعظ، واحتجاج وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد وعيد، وتبشير وتخويف، وأخلاق كريمة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها، ونجد كلام البليغ الكامل، والشاعر المفلق، والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور، فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز في الهجو دون المدح، ومنهم من يقرب في وصف الإبل والخيل، أو سير اللّيل، أو الوسف الحرب، أو وصف الخمر، ومثل ذلك يختلف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام.إذا عجز المتناهون في الفصاحة ومعرفة وجوه الخطاب، وطرق البلاغة، وفنون القول، وقامت الحجة عليهم، فقد لزمت الحجة من دونهم من العرب، ولزمت غيرهم من الأعاجم[٢٢].

فلو أن هذا القرآن غير فصيح، أو كانت فصاحته غير معجزة في أساليبها التي ألقيت إليهم، لما نال منهم الدهر منالاً، ولخلا منه موضعه الذي هو فيه، ثم لكانت سبيله بينهم سبيل القصائد والخطب والأقاصيص، ثم لنقصوه كلمةً كلمةً وآيةً آيةً، دون أن تتخاذل أرواحهم أو تتراجع طباعهم، ولكنّ الله بالغ أمره،[٢٣] وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

---

[٢٢] مناع القطان، مباحث في علوم القرآن، ٢٦١

[٢٣] منصور حسب: إعجاز القرآن في آفاق الزمان والمكان، ص – ٤٥، ط١، ،دار الفكر العربي لبنان ، بيروت١٩٩٦م

د- خلاصة

يستخلص مما سبق ، أنه ليس شيء في أسلوب القرآن يغض من موضعه، أو يذهب بطريقته أو يدخل في شبه من كلام الناس، وما من عالم أو بليغ إلا ويعرف ذلك، ويعد خروج القرآن من أساليب الناس كافةً دليلا على إعجازه، على أنه ليس من كلام الإنسان. إن القرآن الكريم قد جمع من أجناس الكلام أعلاها، وأخذ من كل منها بشعبة، فاجتمع وامتزج له بذلك نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة والعذوبة، فكان اجتماع الأمرين في نظمه فضيلة خصّ بها القرآن الكريم يسرها الله بلطيف قدرته من أمره، ليكون آية بينة لنبيه المصطفى، ودلالة على صحة ما دعا إليه من أمر دينه، إضافة إلى ذلك أنّ القرآن الكريم كتاب العقيدة وهداية، يخاطب الضمير فيحيي فيه عوامل الحياة والارتقاء وبواعث الخير والفضيلة. وإعجازه اللغوي والعلمي ليس في اشتماله على نظريات علمية ولا لغوية تتجدد وتتبدل وتكون ثمرة للجهد البشري في البحث والنظر، وإنما في حثه على التفكير، فهو يحث الإنسان على النظر في الكون والتدبر، ولا يشل حركة العقل في تفكيره. ولكن الفكر البشري ليس له وجود من غير كلمات، لأنه لو لم تكن الكلمات لكانت صدور الناس مقابر للمعاني والأفكار، ومن المعلوم أن الصورة البيانية لا تتكون من غير اللفظ والمعنى، والنظريات اللغوية تدور حول قضية اللفظ والمعنى كليهما يعنى لا بد من الاعتراف بأن إعجازه الفكري لا يخلو من إعجازه اللغوي، يعني أن القرآن معجز بلفظه ومعناه أى بشكله ومضمونه.

المصادر والمراجع

ابن خلدون: عبد الرحمن الحضرمي، مقدمة ابن خلدون، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٩٥٧م.

ابن سنان الخفاجة: عبد الله بن محمد بن سعيد، سر الفصاحة، ط.١، دار الفكر، بيروت، ١٩٥٣م.

ابن فارس، معجم أساليب اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، ط١، مكتبة عيسى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة،١٩٩٠م.

ابن قيم الجوزية: (شمس الدين محمد بن أبي بكر أيوب) الفوائد المشوق إلى علم القرآن وعلم البيان،ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

ابن منظور: (محمد بن مكرم) لسان العرب، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٥٥م.

أبو حاقة، أحمد: البلاغة والتحليل الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣م.

أبو سريع، ياسين عبد العزيز: الأساليب الإنشائية في البلاغة العربية، ط٢، مطبعة السعادة بالقاهرة، ١٩٨٩م.

أبي منصور الثعالب: الإعجاز والإيجاز، طبعة دار الزائد العربي، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م.

الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: أساس البلاغة، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣م.

أنعام، قوال عكاوي: المعجم المفصل في علوم البلاغة، د. ط، ١٩٩٢م.

البستاني، عبد الله: الوافي معجم وسيط للغة العربية، د. ت. د. ط.

باحاذق، عمر محمد عمر: شرح رسالة بيان إعجاز القرآن للإمام الخطّابي، ط١، دار المأمون للتراث، دمشق، .١٩٩٥م.

بسيوني عبد الفتاح فيوط: دراسات بلاغية، مؤسسة مختار بالقاهرة، ١٩٩٨م.

بدوي، أحمد بدوي: د. ت. من بلاغة القرآن.

بركات، محمد بركات حمدي أبو على: فصول البلاغة، .١٩٨٣م.

بسيوني، عبد الفتاح: علم المعاني، ط.١، مكتبة وهبة بالقاهرة، ١٩٩٠م.

بوملحم، علي: د. ت. في الأسلوب الأدبي، ط١، مطبعة السعادة، بيروت:

الجرجاني، عبد القاهر: أسرارالبلاغة، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بالقاهرة، ١٩٧٩م.

حسن إسماعيل: د. ت. د. ط. لآلى التبيان في المعاني والبديع.

حسين جمعة: جمالية الخبر والإنشاء، دراسة منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق، سورية، ٢٠٠٥م.

حفنى محمد شرف: إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق. د. ط، ١٩٧٠م.

الخطيب القزويني: الإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة.ط١، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٣م.

الرافعي، مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط٧، مكتبة التجارية الكبرى بمصر، .١٩٦،م.

الزملكاني: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، تحقيق الدكتورة خديجة الحديثي والدكتور بكري شيخ أمين، ط.١، بيروت، دار الشرق، ١٩٧٣م.

الزركشي، محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن.ط.١، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨م.

الشبايب، أحمد: الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، دار الفكر، بيروت ١٩٩١م.

عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، ط.١، جدة، ١٩٩١م.

العلوي، إمام يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم اليمني: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز تحقيق: عبد الحميد هنداوي، لبنان، بيروت، ٢٠٠٢م.

القرضاوي، يوسف القرضاوي: العقل والعلم في القرآن الكريم.ط١، دار الصحوة للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة، ١٩٩٦م.

الميداني، عبدالرحمن حسن حبنكة: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ط١، مكتبة علي صبيح بالقاهرة، ١٩٩٠م.

خفاجى، محمد عبد المنعم وزميلاه: د. ت. الأسلوب والبيان العربي، الدار المصرية بالقاهرة.

دراز، صباح عبيد: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغة في القرآن الكريم، ط.١، مطبعة الأمانة بالقاهرة، ١٩٨٠م.

علي جاد الحق: نظرات عصرية في القرآن الكريم، ط.١، القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٩١م.

قطب، سيد: في ظلال القرآن. ط١٥، دار العلم جدة: المملكة العربية السعودية، ١٩٨٥م.

محمد حسن سلامة: الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم. ط١. القاهرة: مصر، ٢٠٠٢م.

مصطفى صادق رافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. ط٢. بيروت: لبنان، مكتبة الإيمان، ١٩٥٦م.